التأصيل الإسلامي لمصطلحات العلوم الاجتماعية عند مالك بن نبي
مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" أنموذجاً

نور الدين ميهوبي*

الملخص

تتناول هذه الدراسة مسألة التأصيل الإسلامي لمصطلحات العلوم الاجتماعية عند مالك بن نبي، وذلك بتحليل كيفية توظيفه مصطلحاً أساسياً في فكره، انتقاه من حقل علم الاجتماع، وهو "شبكة العلاقات الاجتماعية". وهذا التوظيف للمصطلح يُبيِّن أنَّ منهج بن نبي في التأصيل له مستويان؛ الأوَّل: إعادة صياغة المصطلح، ثمَّ دمجه في الأفكار التي تُشكِّل منظومته النظرية، وهي: المراحل الثلاث للدورة الحضارية، والعوالم الثلاثة، والدور الحضاري للفكرة الدينية. والثاني: استناد انتقائه مصطلحات العلوم الاجتماعية إلى منطلقات فكرية أساسية، هي: القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، وسيرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه رضي الله عنهم. وهذه المنطلقات الفكرية هي بمنـزلة كُليات فهم من خلالها بن نبي الظواهرَ الـمُتعلِّقة بمشكلات الحضارة. ومصطلحات العلوم الاجتماعية التي تُوافِق منطلقاته الفكرية تُعِينه على الخوض في جزئيات الظواهر محل الدراسة.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، التأصيل الإسلامي، شبكة العلاقات الاجتماعية، مصطلحات العلوم الاجتماعية، المنطلقات الفكرية.

---

* دكتوراه في علم الاجتماع، باحث بمركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC)، الجزائر. البريد الإلكتروني: nou.mihoubi@gmail.com

تم تسلُّم البحث بتاريخ 1/ 6/ 2021م، وقُبِل للنشر بتاريخ 17/ 1/ 2022م.

ميهوبي، نور الدين (2022). **التأصيل الإسلامي لمصطلحات العلوم الاجتماعية عند مالك بن نبي: مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" أنموذجاً**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 28، العدد 104، 115-139. DOI: 10.35632/citj.v28i104.5723

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2022 ©

مقدمة:

خصَّص مالك بن نبي جُلَّ جهده الفكري في البحث عن سُبُل استعادة الأُمَّة الإسلامية دورها الحضاري الذي حادت عنه بعد أنْ دخلت مرحلة الأفول. والبحث في مشكلات الحضارة يتطلَّب سعة الاطِّلاع، والجمع بين تخصُّصات علمية مختلفة؛ نظراً إلى تشعُّب الظاهرة الحضارية، وتفاعلها مع مختلف جوانب حياة الأُمم والشعوب. ولهذا نجد أنَّ بن نبي لم يقف عند تخصُّص مُعيَّن في حقل العلوم الاجتماعية، وإنَّما كان عابراً للتخصُّصات، يُوظِّف كل العلوم المتاحة لديه (بن لحسن، 1999، ص207)، مثل: فلسفة التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد. وقد اقترن بهذا التوظيف لمختلف العلوم الاجتماعية استخدامُ عديد من مصطلحاتها، مثل: "الدورة الحضارية" (بن نبي، 1986ب، ص13)، و"الأنا" (بن نبي، 1986 أ، ص43)، و"الظاهرة الاجتماعية" (بن نبي، 1986ب، ص22)، و"الإقلاع الاقتصادي" (بن نبي، 2000 د، ص80). فالقارئ لكتب بن نبي يَلْحظ أنَّها "تحفل بغزارة توظيف وتشغيل الجهاز المفهومي لهذه العلوم" (سعود، 2015، ص4) بما يخدم أفكاره وأطروحاته.

غير أنَّ الـمُفكِّر الإسلامي لم يرتكز في جهده الفكري فقط على ما تُقدِّمه العلوم الاجتماعية من أفكار ونظريات ومصطلحات ومفاهيم، وإنَّما كان ينهل كذلك من المصادر الإسلامية، وعلى رأسها القرآن الكريم، والأحاديث النبوية. وبحسب نورة خالد السعد، فإنَّ فكر بن نبي، منذ بدايته، أخذ "اتجاهين: الأوَّل: الارتباط بالإسلام وتراثه، الثاني: الانفتاح على الحضارة الغربية وعلومها" (السعد، 1997، ص30). ومن أهم ما نتج من هذه الازدواجية في مصادره الفكرية أنَّه لم يغفل عن الخصوصيات الثقافية والدينية للمحل المدروس، ولا عن الحمولة الوضعية والمادية للرؤية الغربية الـمُوجِّهة للعلوم الاجتماعية.

إنَّ هذه الميزة في فكر بن نبي جعلت إبراهيم عبد الرحمن رجب يُصنِّفه ضمن مُفكِّري المرحلة الأولى من مراحل مشروع التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، وهي مرحلة لم يتأسَّس فيها

المشروع بعدُ، لكنَّها اتَّسمت بشعور عديد من الـمُفكِّرين الإسلاميين بضرورة الإصلاح المنهجي للعلوم الاجتماعية، وإعادة صياغتها من وجهة إسلامية (رجب، 1995، ص7). أمّا بدران بن لحسن فرأى أنَّ بن نبي كان رائداً في إثارة قضية أسلمة العلوم الاجتماعية، التي اهتمَّ بها المَعْنيون في حقل المعرفة الإسلامية في حقبة الثمانينات؛ لِـما قدَّمه من إسهامات في هذا المجال (بن لحسن، 1999، ص205). وإذا افترضنا أنَّ التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، أو إضفاء الصفة الإسلامية عليها، يعني أساساً عدم القطع بين الحقيقة الاجتماعية والنمط الإلهي الـمُرتبِط بها (الفاروقي، 1995، ص28)، والخوض فيها في ضوء التصوُّر الإسلامي للإنسان والمجتمع والوجود (رجب، 1995، ص15)، مع اعتبار الوحي ضمن مصادرها المعرفية، وعَدِّ التوحيد أساساً نظرياً (أمزيان، 1991، ص265)، والنظر إلى الأُسس الإسلامية بوصفها أرضية تقام عليها (اللجنة الدائمة للتأصيل الإسلامي، 1987)؛ فإنَّه يُمكِن القول إنَّ جوهر هذا المشروع يكمن في ربط العلوم الاجتماعية بالمنظور الإسلامي العام للوجود. وهذا الجوهر لم ينفكَّ عنه بن نبي في أثناء دراسته مشكلات الحضارة عن طريق توظيف المعارف الغربية في ضوء النظرة الإسلامية الكلية للفرد والمجتمع، وسُبُل التمكين، ومُقوِّمات الحضارة، ...، وغير ذلك.

وبالرغم ممّا يُمكِن أنْ يُقدِّمه فكر بن نبي لمسألة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، فإنَّه لم يحظَ بالاهتمام الكافي؛ سواء عند المهتمين بهذا الـمُفكِّر، أو عند المهتمين بقضية التأصيل؛ إذ توجد دراسات أشارت فقط إلى أسبقيته في هذا المجال كما ذكرنا. والدراسات القليلة التي عرضت لهذا الموضوع -بالرغم من أهميتها- لم تتناوله من حيث إبراز قواعده أو منهجه في توظيف هذه العلوم، وإنَّما تناولت الصعوبات اللغوية في نقله المصطلحات العلمية من بيئتها الأصلية إلى بيئة مغايرة (سماتي، 2006)، والخلفية الإسلامية لتناوله مشكلات الحضارة (ابن شعيب، 2019)، ومنظوره الشمولي الذي يربط بين المادة والروح (بابا عمي، 2018).

ونستثني هنا الدراسة التي أعدَّها مولاي الخليفة لمشيشي، وحملت عنوان: "مالك بن نبي: دراسة استقرائية مقارنة. معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع مشكلات الحضارة"؛ فقد

أشارت هذه الدراسة إلى أنَّ تعامل بن نبي مع الفكر الغربي المعاصر يُمكِن حصره في نقطتين؛ الأولى: "رسالة المسلم العالمية" التي تستوجب عالمية الرؤية الحضارية الإسلامية، والثانية: "الاستيعاب والتجاوز" للمنظومة الفكرية الغربية المعاصرة (لمشيشي، 2012، ص74). ويرى لمشيشي أنَّ أهم ركن في منهج بن نبي في التأصيل للعلوم الإنسانية هو ربط العلم بالأخلاق؛ ذلك أنَّ المنظور الأخلاقي للعلوم كفيل بأنْ يُجنِّبنا السقوط في وهم مركزية الحضارة الغربية. والجانب الذي يهمُّنا أكثر في دراسة لمشيشي هو استقراؤه العديد من مصطلحات علم النفس، وعلم الاجتماع، والتربية، وعلم السياسة، التي جاءت في كتب بن نبي، واستنتاجه أنَّ الإيحاءات والاقتباسات من التخصُّصات المعرفية الغربية كانت تحكمها "المعيارية الإسلامية القائمة على تلمُّس تزكية التصوُّر الإسلامي حول الإنسان والحياة والكون" (لمشيشي، 2012، ص99). وهذا الاستنتاج يُظهِر جانباً مُهِمّاً من منهج بن نبي في التأصيل، وهو بحثه دائماً في النصوص الشرعية؛ ما قد يُضْفي مصداقية على مصطلحات العلوم الاجتماعية.

غير أنَّ صاحب كتاب "شروط النهضة" لم يُوظِّف مصطلحات العلوم الاجتماعية بالدرجة نفسها؛ فمنها ما هو أساسي في بنائه الفكري، ومنها ما هو ثانوي. والتركيز على المصطلحات الأساسية والمركزية يُمكِن أنْ يُبرِز جوانب أُخرى لمنهجه في التأصيل. وسنحاول في هذه الدراسة الكشف عن منهج بن نبي في التأصيل لمصطلح أساسي في فكره، هو مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، وذلك بالإجابة عن التساؤلات الآتية:

- متى أدرج بن نبي مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" في كتبه؟ وكيف كان ذلك؟
- هل استعمل بن نبي هذا المصطلح بمعناه الأوَّلي أم أعاد صياغته؟
- كيف وظَّف بن نبي هذا المصطلح الأساسي داخل منظومته النظرية؟
- هل يُمكِن استخلاص كليات تحكم منهج بن نبي في التأصيل؟

أولاً: إدراج مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" في كتب مالك بن نبي

استعمل مالك بن نبي مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" بصورة أساسية في كتابه "ميلاد مجتمع" الذي حمل عنواناً فرعياً هو: "شبكة العلاقات الاجتماعية". ويُمكِن القول إنَّ بن نبي ألَّف هذا الكتاب خصيصاً لتبيان أهمية هذا المصطلح في التحليل والفهم لنشأة المجتمعات وتطوُّرها. وبعد هذا الكتاب الذي صدر عام 1962م، استعمل بن نبي المصطلح تقريباً في جميع كتبه التي أتت من بعدُ عندما تناول موضوع العلاقات التي تربط بين أفراد المجتمع من منظور علم الاجتماع.

ونجد هذا المصطلح أيضاً في كتابه "بين الرشاد والتيه" الذي نُشِر عام 1978م، وضَمَّ مقالاته المنشورة بين عام 1964م وعام 1968م. ففي المقالة التي تحمل عنوان: "نظرة علم الاجتماع في الاستقلال"، أكَّد بن نبي ضرورة إصلاح الأضرار التي لحقت بشبكة العلاقات الاجتماعية في الجزائر بعد قرون ما بعد الـمُوحِّدين وقرن الاستعمار (بن نبي، 2002 أ، ص47). وكذلك نجد هذا المصطلح في كتاب "القضايا الكبرىٰ" الذي حوىٰ نصّاً لمحاضرة ألقاها بن نبي عام 1964م، وحملت عنوان: "مشكلة الحضارة"، وتطرَّق فيها إلىٰ خطر تقويض شبكة العلاقات الاجتماعية بسبب فقد الفرد الصلة مع الجماعة (بن نبي، 2000 أ، ص31). وقد جاء ذكر هذا المصطلح كذلك في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" الذي صدر عام 1971م؛ أيْ قبل وفاته بعامين -رحمه الله-؛ للتعبير عن الآثار السيئة التي يُمكِن أنْ تطال وحدة المجتمع وانسجامه إذا لم يعد هناك كابح روحي أو عقلي للجانب الغريزي (القوَّة الحيوية) للأفراد. قال في ذلك: "أمّا في المرحلة الثالثة، فإنَّ الغرائز تتحرَّر (...) هنا تقوم الطاقة الحيوية بتفتيت المجتمع، بعد أنْ تكون قد تحرَّرت تماماً، وذلك بإلغاء شبكة روابطه الاجتماعية، مُحطِّمة نسقها المنظم ..." (بن نبي، 2002 ج، ص56).

إنَّ هذه الأمثلة تُبيِّن كيف دأب بن نبي علىٰ استعمال مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" بعد كتابه "ميلاد مجتمع"؛ للتعبير عن العلاقات التي تربط بين أفراد المجتمع. وإذا تتبعنا ما كتبه قبل هذا الكتاب، فإنّا نجده لا يذكر هذا المصطلح بالرغم من أنَّ السياق يتطلَّب ذلك، كما في "الظاهرة القرآنية" (1947)؛ إذ قال: "وبينما كانت هذه الأنشودة (طلع البدر علينا) تنطلق من كل مكان، كان

المهاجرون والأنصار يعقدون فيما بينهم أواصر الأخوة الإسلامية، أساس المجتمع الجديد والحضارة الجديدة" (بن نبي، 2000 ب، ص134).

وفي "شروط النهضة" (1949)، عبَّر بن نبي عن الفكرة نفسها التي ذكرها في كتاب "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، وهي تأثير الغريزة في وحدة المجتمع وانسجامه، لكنَّه لم يتطرَّق إلى مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"؛ إذ قال: "وتستخدم القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمَّع، والمجتمع الذي يتجمَّع لتكوين حضارة، فإنَّه يستخدم نفس الغريزة، ولكنَّه يُهذِّبها ويُوظِّفها بروح خلقية سامية" (بن نبي، 1986 ب، ص88). وقد يستشكل بعض الدارسين استعمال بن نبي هذا المصطلح مَرَّة واحدة في "شروط النهضة" حين كتب ما يأتي: "وفي الوقت نفسه يواصل المجتمع الذي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور تطوُّره، وتكتمل شبكة روابطه الداخلية بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة في العالَم" (بن نبي، 1986 ب، ص68). غير أنَّ هذه الفقرة موجودة في الفصل الموسوم بـ: "أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة"، وهو فصل جديد أضافه بن نبي إلى الكتاب في طبعته الثانية التي صدرت عام 1960م؛ بُغْيَةَ توضيح أفضل لعلاقة الفكرة الدينية بمفهوم "الحضارة"، كما ذكره في الـمُقدِّمة.

وفي "وجهة العالم الإسلامي" (1954) مثال جيد يُبيِّن كيف أنَّ بن نبي عبَّر عن فكرة تقويض (أو إلغاء) "شبكة العلاقات الاجتماعية"، ولكنْ بلفظ "انهيار البناء الاجتماعي". قال في ذلك: "ولكنَّ أوضاع القِيَم تنقلب في عصور الانحطاط لتبدو الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي" (بن نبي، 2002 ب، ص30).

إنَّ ما يُمكِن استخلاصه من هذه الأمثلة والمقارنات بين المواضع التي ذكر فيها بن نبي "شبكة العلاقات الاجتماعية" في كتبه هو أنَّه أدرج هذا المصطلح في كتبه مطلع الستينيات من القرن العشرين الميلادي، وقد تزامن ذلك مع انتشار مصطلح "الشبكة" في حقل علم الاجتماع بأوروبا عامَّة، وفرنسا بوجه خاص. أمّا سبب تطوُّره وانتشاره في فرنسا فيُعْزىٰ إلى الصدىٰ الذي لقيه كتاب "أسس القياس الاجتماعي" (L.Moreno, 1954) لعالِـم النفس الاجتماعي جاكوب مورينو Jacob Moreno. وقد

صدر هذا الكتاب أوَّل مَرَّة في فرنسا عام 1954م، وهو ترجمة للنسخة الأصلية التي نُشِرت بالإنجليزية عام 1934م في الولايات المتحدة الأمريكية (L.Moreno, 1934).

وكما هو معلوم، فإنَّ بن نبي استقرَّ في فرنسا سنوات عِدَّة حتّى عام 1956م. وفي أثناء وجوده فيها اطَّلع على الإنتاج الفكري في مجال العلوم الاجتماعية، ومن الراجح أنَّه اطَّلع على كتاب "أسس القياس الاجتماعي" في الوقت الممتد بين سنة صدور الكتاب وسنة مغادرته فرنسا؛ أيْ بين عام 1954م وعام 1956م. وممّا يدعم هذا الاحتمال أنَّ بن نبي ذكر جاكوب مورينو في كتابه "فكرة الإفريقية الآسيوية" الصادر عام 1956م، وعرَّفه في الهامش على أنَّه "عالِـم نفسي أمريكي مشهور يخالف مدرسة فرويد" (بن نبي، 2001، ص257).

والحقيقة أنَّ مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" لم يدخل في كتب مُفكِّرنا الإسلامي مباشرةً، وإنَّما دخل أوَّلاً بوصفه فكرة عبَّر عنها بكلمة "الشبكة". ففي كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" الصادر عام 1960م، يُلاحَظ أنَّ بن نبي بدأ ينظر إلى بعض الأحداث والظواهر الاجتماعية التي يُحلِّلها بناءً على فكرة "الشبكة"، وذلك حين استعمل هذه الكلمة للتعبير عن كلٍّ من: العلاقات التي تربط واقعة مُعيَّنة بوقائع أُخرى (بن نبي، 1981، ص55)، ومجموعة من الأفكار الـمُنسجِمة (بن نبي، 1981، ص63)، ومجموعة من الخيوط التي يصنعها الاستعمار وتصنعها القابلية للاستعمار (بن نبي، 1981، ص92)، والمراصد الـمُتخصِّصة في الصراع الفكري (بن نبي، 1981، ص57، 113).

غير أنَّ أوَّل استعمال لمصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" في كتب بن نبي كان في الطبعة الثانية من كتاب "شروط النهضة"، حين استعمله في الفصل الذي أضافه عن "أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة" كما ذكرنا آنفاً. أمّا سبب الاختلاف في تناول المصطلح بين كتاب "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" والطبعة الثانية من كتاب "شروط النهضة"، بالرغم من أنَّهما صدرا في السنة نفسها؛ أيْ عام 1960م، فمردُّه –في رأينا– إلى الفارق الزمني الذي يصل تقريباً إلى ستة أشهر بين الكتابين؛ فتوقيع بن نبي في كتاب "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" كان يوم 2 أيار/ ماي

1960م، في حين كان توقيعه في كتاب "شروط النهضة" يوم 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1960م. ثمَّ تناول بن نبي هذا المصطلح بالتفصيل في كتاب "ميلاد مجتمع".

إنَّ التدرُّج في استعمال مصطلح " شبكة العلاقات الاجتماعية" لم يكن بالشيء غير المعهود عند بن نبي؛ فقد عُرِف عن هذا الـمُفكِّر أنَّه كان يُنقِّح أفكاره ويُطوِّرها في أثناء مناقشاته مع طلبته، وفي محاضراته ومطالعاته للكتب. وقد أشار عمر مسقاوي (أحد تلامذة بن نبي الـمُقرَّبين) في معرض تصدير كتاب "مشكلة الثقافة" إلى كيفية نشوء فكرة هذا الكتاب عند بن نبي؛ إذ راودته هذه الفكرة بعدما قدَّم محاضرات عديدة، وقرأ كتباً عِدَّةً عن موضوع الثقافة (بن نبي، 2000 ج، ص8).

ثانياً: مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" بين جاكوب مورينو ومالك بن نبي

ذكرنا سابقاً أنَّ نشأة مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" وصياغته تعود إلى عالِـم النفس الاجتماعي جاكوب مورينو. وحتّى يتسنّى لنا إبراز منهج بن نبي في التأصيل لهذا المصطلح، يجب – في رأينا– أنْ نعرف أوَّلاً المعنى الذي أراده منه مورينو، ثمَّ نعرف معناه عند بن نبي.

1. مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" عند جاكوب مورينو:

وُلِد جاكوب ليفي مورينو Jacob Levy Moreno عام 1889م في مدينة بوخارست (عاصمة رومانيا اليوم)، ودرس في فيينا الفلسفة ثمَّ الطب، وتحصَّل على شهادة في علم النفس عام 1917م. وقد ظلَّ يمارس هذه المهنة حتّى عام 1926م، حيث قرَّر الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

تأثَّر مورينو في بداية مشواره العلمي بأفكار عالِـم النفس سيغموند فرويد Sigmund Freud، لكنَّه استقلَّ فيما بعدُ بأفكار مُخالِفة لأفكار فرويد. وقد لخَّص بن نبي الفرق بين فرويد ومورينو في أنَّ الأوَّل يعتقد بأنَّ الأمراض النفسية توجد داخل الفرد، وأنَّ الثاني يراها كامنة في علائق الأفراد بعضهم ببعض (بن نبي، 1986 أ، ص44). ولهذا، يُعَدُّ مورينو مُؤسِّس مدرسة جديدة في علم النفس، وقد أحدث لها أدوات تحليل وعلاج جديدة أيضاً، سمّاها الدراما الاجتماعية، والدراما النفسية.

وفي مجال علم الاجتماع، وهذا ما يهمُّنا في إطار دراستنا هذه، فإنَّ مورينو يرىٰ أنَّ أصغر وحدة اجتماعية، أو (الذَّرَّة الاجتماعية) Social Atom بتعبيره الخاص، ليست الفرد في حَدِّ ذاته، وإنَّما تكمن في الفرد، إضافةً إلىٰ علاقات التنافر والتقارب مع الأشخاص المحيطين به. وبحسب مورينو، فإنَّ هذه العلاقات بين الأشخاص يُمكِن قياسها، وهي تُعبِّر أساساً عن نسبة الاندماج داخل الجماعات والمجتمعات.

لقد انصبَّ اهتمام مورينو في أمريكا علىٰ دراسة العلاقات بين الأفراد من حيث نوعيتها وكثافتها وكمِّيتها، مستعيناً في ذلك بمقاربات نفسية واجتماعية. وكان مورينو قد تولّىٰ منصب مدير الأبحاث لمؤسسة إعادة التربية في مدينة هودسن، مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي؛ ما ساعده علىٰ إنجاز الدراسة الميدانية التي شكَّلت صُلْب كتابه "مَنْ سينجو؟ مقاربة جديدة لمشكلة العلاقات البشرية" الذي صدر عام 1934م، واشتُهِر به. ففي هذا الكتاب أسَّس مورينو أوَّل منهج حقيقي لدراسة العلاقات الاجتماعية بصورة إمبريقية وتجريبية، وأطلق علىٰ هذا المنهج اسم The Sociometry؛ أي القياس الاجتماعي.

ويعتمد الكتاب أساساً علىٰ دراسة ميدانية أُجرِيت علىٰ مجموع الأفراد المحبوسين في مؤسسة إعادة التربية، وقد كشفت نتائج هذه الدراسة عن وجود هيكل اجتماعي للعلاقات بين المحبوسين، وهو هيكل غير مرئي أوَّل وهلة، ومُختلِف عن الهيكل الرسمي الذي يُوزِّع المحبوسين علىٰ أساس عرقي. صحيحٌ أنَّ هذا الهيكل للعلاقات الاجتماعية غير مرئي، وغير رسمي أيضاً، لكنَّه مُهيكَل بصلابة، ومستقر زمنياً، ولا يأبه بالحدود العرقية (Merklé, 2011)، وهو ما سمّاه مورينو a network؛ أي الشبكة. ولاحظ مورينو أيضاً أنَّ هذه الشبكة تُسهِّل التنقُّل وانتشار الأخبار بين المحبوسين؛ فهي ليست فقط مُهيكَلة ومستقرة زمنياً، وإنَّما تؤدّي وظيفة تكوين الرأي العام؛ ما جعلها تُسهِم بصورة غير مباشرة في عملية الضبط الاجتماعي للأفراد (Ferrand and de la Rúa, 2006).

وانطلاقاً من هذه الدراسة، عرَّف مورينو شبكة العلاقات الاجتماعية بأنَّها "هيكل سيكولوجي يأخذ شكل مجموعة من الروابط المتسلسلة، يكون الأفراد الذين يساهمون ببعض روابطهم في تشكيلها غير مُطَّلِعين على الأفراد الذين لديهم معهم روابط بعيدة، ولكنْ يُمكِنهم أنْ يُؤثِّروا على بعضهم بعضاً بصفة غير مباشرة. وبفضل هذه الروابط المتسلسلة يُمكِن لآراء الأفراد واقتراحاتهم التنقُّل داخل الجماعة" (L.Moreno, 1934).[1]

والحقيقة أنَّ دراسة مورينو هذه رائدة في مجال علم النفس الاجتماعي، وأنَّه يُمكِن أنْ نستخلص منها ثلاث أفكار يتمحور حولها مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" من منظور هذا الـمُفكِّر:

– أهمية الجانب النفسي في فاعلية الجماعات الاجتماعية. فعلى مستوى شبكة العلاقات الاجتماعية، توجد تيارات عاطفية، أو وجدانية تفضيلية (تنافر، تجاذب، لا مبالاة مُعبَّر عنها، تجاهل) يتحدَّد من توجُّهاتها وشِدَّتها هيكلُ هذه الجماعات. ومن ثَمَّ، فإنَّ فاعلية المجتمع تكون أكبر عند غلبة عاطفة التجاذب، وتقبُّل الأفراد بعضهم لبعض.

– شبكة العلاقات الاجتماعية هي شبكة غير رسمية، وغير مرئية، لكنَّها مُهيكَلة ومستقرة.

– شبكة العلاقات الاجتماعية تُسهِم في تكوين الرأي العام، وتؤدّي وظيفة الضبط الاجتماعي.

2. مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" عند مالك بن نبي:

ذكرنا سابقاً أنَّ مالك بن نبي أفرد كتابه "ميلاد مجتمع" لبيان أهمية مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" في فهم كيفية تكوين المجتمعات، وعوامل نهوضها الحضاري، وأسباب انتكاسها؛ فهو يُعبِّر بهذا المصطلح عن العنصر الثابت والمضمون الجوهري للكيان الاجتماعي، وعن العلاقات التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وتُوجِّه نشاطاتهم.

وشبكة العلاقات الاجتماعية هذه تُمثِّل عند وجودها أوَّل مَرَّة حدث ميلاد مجتمع في التاريخ؛ فهي النقطة الفاصلة بين ما سمّاه بن نبي المجتمع الطبيعي والمجتمع التاريخي. والفقرة الآتية من كتابه "ميلاد مجتمع" تُلخِّص المعنى الذي أراده من هذا المصطلح؛ إذ قال: "فالمجتمع يحمل إذن في داخله

[1] ترجمة شخصية للفقرة.

الصفات الذاتية التي تضمن استمراره، وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ. وهذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي؛ إذ هو الذي يُحدِّد عمر المجتمع، واستقراره عبر الزمن، ويتيح له أنْ يواجه ظروف تاريخه جميعاً. وهو الذي يتجسَّد -في نهاية الأمر- في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وتُوجِّه ألوان نشاطاتهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامَّة، هي رسالة المجتمع الخاصة به. فتكوُّن هذه الشبكة، ولو في مرحلة ابتدائية، هو الذي يُعبِّر عن حدث (ميلاد مجتمع) في التاريخ" (بن نبي، 1986 أ، ص14).

وبالمقارنة بين المعنى الذي قصده جاكوب مورينو من "شبكة العلاقات الاجتماعية" والمعنى الذي أراده مالك بن نبي منها، فإنَّ من الـمُلاحَظ أنَّ الـمُفكِّر الإسلامي بن نبي لم يستعمل هذا المصطلح كما صاغه صاحبه؛ فالتعريف الذي قدَّمه يختلف اختلافاً كلياً عن تعريف مورينو؛ إذ حدَّده هذا الأخير فقط في إطار العلاقات بين الأشخاص، في حين أعطاه بن نبي معنىً أوسعَ؛ إذ ربطه بنشأة المجتمع وجوهره، وبتوجيه نشاط أفراد المجتمع نحو الوظيفة الحضارية.

وهذه المقارنة تُظهِر أيضاً أنَّ بن نبي ركَّز على فكرة أساسية عند مورينو، تقول بأهمية الجانب النفسي في فاعلية الجماعات الاجتماعية، ولم يولِ أهمية للأفكار الأُخرى التي تقول بهيكلة "شبكة العلاقات الاجتماعية"، واستقرارها، وتأثيرها في تكوين الرأي العام. والحقيقة أنَّ العلاقة بين الجانب النفسي للجماعات الاجتماعية وفاعليتهم في مجتمعهم تُمثِّل فكرة تبنّاها بن نبي قبل استعماله هذا المصطلح، وهي فكرة مركزية في نظره؛ إذ نجدها في معظم كتبه، وقد استنتجها من تجربة المسلمين الأوائل في التآلف والاتحاد، كما حدث بين المهاجرين والأنصار. ففي أوائل كتبه، وهو "شروط النهضة"، قال بن نبي: "إنَّ روح الإسلام هي التي خَلقت من عناصر مُتفرِّقة كالأنصار والمهاجرين أوَّلَ مجتمع إسلامي ... إنَّ قوَّة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام" (بن نبي، 1986 ب، ص90).

لقد أسقط بن نبي علاقة الجانب النفسي مع فاعلية الجماعات الاجتماعية على الأخلاق والقِيَم الدينية التي تظهر في السلوك الاجتماعي للمسلم؛ لذا نجده يذكر -مثلاً- فكرة "الإسلام

الاجتماعي" في كتاب "شروط النهضة" (بن نبي، 1986 ب، ص90)، وفكرة "دور الدين الاجتماعي" في كتاب "وجهة العالم الإسلامي" (بن نبي، 2002 ب، ص32). فعنده "الإسلام الاجتماعي" هو الإسلام الذي يجعل الشخص يُقبِل على واجبه، ويتحمَّل أعباء مسؤوليته؛ ليُغيِّر ما حوله إلى الأفضل، كما عاشه المسلمون الأوائل. أمّا الإسلام المنطوي على الفرد، والمنـزوي عن المجتمع، فلا يمتُّ لحقيقة الإسلام بصلة. والشيء نفسه ينطبق على الدور الاجتماعي للدين؛ فإذا لم يكن الدين مُركِّباً للقِيَم الاجتماعية، فإنَّ "رسالته التاريخية تنتهي على الأرض" (بن نبي، 2002 ب، ص32).

ولكنْ، إذا سلَّمْنا أنَّ الفكرة الأساسية لمصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" كانت موجودة عند بن نبي، فلماذا عَمَدَ إلى توظيف هذا المصطلح؟ في رأينا، تُركِّز منظومة بن نبي النظرية أساساً على الجوانب النفسية، وهذا المصطلح الذي انتقاه من حقل علم الاجتماع يُضْفي على منظومته النظرية البُعْد السوسيولوجي الذي كان ينقصها. وهذا ما سنتناوله في المبحث الآتي.

ثالثاً: مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" والمنظومة النظرية لمالك بن نبي

بحسب بعض الباحثين المهتمين بفكر بن نبي، مِمَّن تناولوا فكره عامَّة، أو تناولوا مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" بوجه خاص، فإنَّ هذا المصطلح يتركَّز في موضعين داخل المنظومة النظرية لبن نبي؛[2] الأوَّل: على مستوى المراحل الثلاث للدورة الحضارية، والثاني: على مستوى العوالم الثلاثة.[3] ويُمكِن أنْ نضيف إلى هذين المستويين مستوىً ثالثاً يتعلَّق بالدور الحضاري للفكرة الدينية.

---

[2] المنظومة النظرية: هي مجموع النظريات والأفكار والمفاهيم والمصطلحات الـمُترابِطة التي صاغها بن نبي، وتعبَّر في مجملها عن طريقة تحليله لظاهرة "الحضارة".

[3] قدَّم محمد الطاهر الميساوي، في مقال حمل عنوان: "الدين، المجتمع، والثقافة في فكر مالك بن نبي" (بالإنجليزية)، لمحة عن أهم أفكار بن نبي، وذكر عند تناوله مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" كيف أنَّ هذا المصطلح مُرتبِط بفكرة العوالم الثلاثة (عالَم الأفكار، وعالَم الأشخاص، وعالَم الأشياء). وبالمثل، ذكر عمّار الطالبي المصطلح نفسه في مقال عنوانه: "فكر مالك بن نبي

1. مستوى المراحل الثلاث للدورة الحضارية:

تُعبِّر المراحل الثلاث في المنظومة النظرية لبن نبي عن مراحل الدورة الحضارية. وقد ترجمها هذا الـمُفكِّر في مُخطَّطه المشهور في كتاب "شروط النهضة"، وهي باختصار: مرحلة الميلاد التي تمتاز بهيمنة الروح، ومرحلة الأوج التي تمتاز بهيمنة العقل، ومرحلة الأفول التي تمتاز بهيمنة الغريزة. ولكلٍّ من هذه المراحل مقياس، سمّاه بن نبي مقياس القِيَم النفسية الزمنية، وهو يدلُّ على التحوُّلات النفسية لدى الفرد عبر الزمن الحضاري، أو الدورة الحضارية.

فالمراحل الثلاث عند بن نبي ترتبط أساساً بالتحوُّلات النفسية لدى أفراد المجتمع، بحيث يُخضِع الفرد غرائزه، بفعل الوازع الديني، لنظام من الأفعال الـمُنعكِسة، يُسمّى الكبت. فمرحلة الروح هي -في الوقت نفسه- مرحلة كبت الغريزة، ومرحلة العقل تُوافِق المرحلة التي يقلُّ فيها كبت الغريزة، ومرحلة الأفول هي مرحلة إطلاق العِنان للغريزة.

وفي كتاب "ميلاد مجتمع" أعاد بن نبي عرض مُخطَّط دورته الحضارية في ضوء مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، إضافةً إلى التحليل النفسي الذي سبق أنْ تحدَّث عنه في كتاب "شروط النهضة". قال في ذلك: "ورُبَّما أدركنا خاصة معنى (القِيَم النفسية الزمنية) التي أشرنا إليها ببعض أضلاع الرسم المذكور؛ فهي تُمثِّل درجة النمو في شبكة العلاقات، والمستوى الاجتماعي في نظام الأفعال الـمُنعكِسة في مجتمع مُعيَّن، في لحظة مُعيَّنة من تاريخه. وكل مرحلة من المراحل الثلاث في الرسم البياني المذكور يُمكِن الآن أنْ تستبين في علاقتها بهذين المصطلحين" (بن نبي، 1986 أ، ص76).

والمجتمع الإسلامي المعاصر"، ولكنَّه ربط هذا المصطلح بفكرة "المراحل الثلاث للدورة الحضارية" التي رسمها بن نبي (مرحلة الميلاد، ومرحلة الأوج، ومرحلة الأفول). وكذلك تناول بدران بن لحسن هذا المصطلح في حوار له على منصة عمران الإلكترونية، حمل عنوان: "العلاقات الاجتماعية ... ساعة الميلاد"، مُبيِّناً -في الوقت نفسه- علاقة المصطلح بفكرة "العوالم الثلاثة"، وفكرة "المراحل الثلاث" (بن لحسن ، 2020).

وإذا قصرنا الحديث على علاقة مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" بالمراحل الثلاث، فإنَّه يُبيِّنها على النحو الآتي:

– المرحلة الأولى: تكون الشبكة في هذه المرحلة في أكثف حالاتها، لا في أوسع امتدادها؛ لأنَّ المجتمع نفسه يكون في شكله الجنيني، أو في بداية نشأته. وفيها يُحقِّق المجتمع أرفع درجات الانسجام والاندماج، كما حدث في المجتمع المدني بالعهد النبوي، ومثَّل تطبيقاً عملياً لحديث رسول الله ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً" (حديث متفق عليه).

– المرحلة الثانية: تكون الشبكة في هذه المرحلة في أكثر حالاتها امتداداً، ولكنَّ بعض الثغرات والنقائص في انسجامها تبدأ بالظهور عليها، مثل الحركات الانفصالية التي نشأت في عهد الخلافة العباسية حين استقلَّ الأغالبة أو الفاطميون بأقاليم تابعة للخلافة.

– المرحلة الثالثة: تتفكَّك شبكة العلاقات الاجتماعية في هذه المرحلة بسبب هيمنة الغريزة، وانتشار الفردية. وقد ضرب بن نبي لهذه المرحلة مثال عصر ملوك الطوائف في الأندلس، وهو الذي يصدق فيه وصف الرسول ﷺ لحال الأُمَّة الإسلامية عند انتكاسها؛ إذ تصبح "... غثاء كغثاء السيل."

يتبيَّن ممّا سبق أنَّ مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" مكَّن بن نبي من إعادة عرض مراحل الدورة الحضارية بلغة علم الاجتماع؛ أيْ إنَّه أضاف بُعْداً تحليلياً سوسيولوجياً، أبرز من خلاله ملامح المجتمع الخاصة بكل مرحلة من المراحل الثلاث؛ ما أثرى منظومته النظرية، وفتح لها أُفقاً تحليلياً وتفسيرياً جديداً.

2. مستوى العوالم الثلاثة:

رأى الـمُفكِّر الإسلامي بن نبي أنَّ تاريخ أيِّ مجتمع هو من صنع ثلاثة عوالم، هي: عالَم الأشخاص، وعالَم الأفكار، وعالَم الأشياء. وقد ذكر في كتابه "مشكلة الثقافة" أنَّ الشرط الأساسي لاكتساب عالَم الأفكار وعالَم الأشياء قيمة ثقافية هو ارتباطهما عضوياً بعالَم الأشخاص (بن نبي، 2000 ج، ص48)؛ أيْ إنَّ الإنسان هو في نفسه عالَم من العوالم الثلاثة، وهو –في الوقت نفسه– الرابط العضوي لهذه العوالم؛ فإذا لم يرتقِ الإنسان لتحقيق وظيفة الربط بين عالَم الأفكار وعالَم الأشياء، فإنَّه

سيرى فقط ظاهر الأشياء، ولن يتعرَّف الأفكار في جوهرها؛ وإنَّما سيلمُّ فقط ببعض وجوهها. والفرق بين الإنسان الذي يُحقِّق هذه الوظيفة وغيره مِمَّن لا يُحقِّقها مثل الفرق بين نيوتن (Newton) حين استخلص نظرية الجاذبية من سقوط تفّاحة على الأرض والشخص الذي تسقط أمامه تفّاحة، فيأكلها، وينتهي الأمر.

لقد أعاد بن نبي صياغة هذا المستوى من المنظومة النظرية (أيْ فكرة العوالم الثلاثة) في كتاب "ميلاد مجتمع"، استناداً إلى مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، وعبَّر عنه بالقول: "فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعاً، ومعنى هذا أنَّه لا يُمكِن أنْ يتمَّ عمل تاريخي إذا لم تتوافر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص، وبين هذه العوالم لتُشكِّل كيانها العام، من أجل عمل مشترك. وكما أنَّ وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة، فإنَّ تَوافق هذه الوحدة مع الغاية منها -وهي التي تتجسَّم في صورة (حضارة)- يُعَدُّ ضرورة أيضاً. وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود (عالَم) رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية، أو ما نُطلِق عليه (شبكة العلاقات الاجتماعية)" (بن نبي، 1986 أ، ص27).

ورأى بن نبي أنَّ وجود العوالم الثلاثة يستلزم وجود عالَم رابع، هو عالَم العلاقات بين هذه العوالم. ومن ثَمَّ، يُمكِن القول إنَّ عالَم العلاقات يندرج تحت العوالم الثلاثة؛ فهو مُتضمَّن فيها، وإنْ لم يُسلَّط الضوء عليه. فالقول بوجود ثلاثة عوالم يربطها عالَم الأشخاص يتطلَّب وجود شبكة من العلاقات تُنسَج بسبب ترابط هذه العوالم بعضها ببعض. وهنا تكمن أهمية مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" بالنسبة إلى فكرة "العوالم الثلاثة"؛ ذلك أنَّه مكَّن بن نبي من إبراز هيكل العلاقات الذي يؤدّي دوراً اجتماعياً مُهِمّاً يصعب إدراكه من دون هذا المصطلح.

ومن جهة أُخرى، فإنَّ استعمال هذا المصطلح أضاف إلى فكرة "العوالم الثلاثة" بُعْداً جديداً، تمثَّل في ضرورة وجود صلات داخل هذه العوالم، إضافةً إلى الصلات التي تكون بينها. فشبكة العلاقات الاجتماعية تؤدّي -في نهاية المطاف- وظيفتين بالنسبة إلى فكرة "العوالم الثلاثة"، هما: ربط هذه العوالم بعضها ببعض، وربط أجزاء كل عالَم بعضها ببعض على حِدَة.

3. مستوى الدور الحضاري للفكرة الدينية:

هو المستوى الثالث من المنظومة النظرية لبن نبي الذي أعاد صياغته بإضافة مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية". والدور الحضاري للفكرة الدينية صاغه بن نبي في كتاب "شروط النهضة" حين تناول موضوع الناتج الحضاري؛ إذ رأى في هذا الأخير حصيلة تفاعل الإنسان والتراب والوقت، وأنَّ نتاج الحضارة جميعه إنَّما هو نتاج لهذه الـمُكوِّنات الثلاثة. غير أنَّه طرح سؤالاً مُهِمّاً، هو: لماذا لا توجد حضارة حيثما وُجِد الإنسان والتراب والزمن؟ ثمَّ أجاب عنه بالقول إنَّ نشوء الحضارة رهْن بما يُسمّى مُركَّب الحضارة، أو العامل الذي يَمزج هذه الـمُكوِّنات الثلاثة بعضها ببعض، ويُعرَف بالفكرة الدينية. وبعبارة أُخرى، فإنَّ تأثير الفكرة الدينية في تلك الـمُكوِّنات إنَّما يكون بتحويل روح الإنسان ودفعها إلى التغيير، ثمَّ تحويل الإنسان الترابَ والزمن بفعل هذا الدافع الروحي، فتنتج الحضارة.

وقد أضاف بن نبي إلى هذا الدور الحضاري للفكرة الدينية مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، وعبَّر عنه قائلاً: "نستطيع أنْ نُقرِّر أنَّ الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية (...) ومعنى هذا أيضاً أنَّ شبكة العلاقات بكل ما تحتويه من خيوط وأطراف، والتي سيتسنّى للمجتمع بفضلها أنْ يؤدِّي عمله التاريخي هي ذاتها تُعَدُّ في حيِّز القوَّة داخل البذرة (الفكرة الدينية) التي تشتمل جميع أقدارها (...) إذن، فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان (...) فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظلُّ العلاقة الروحية في المجال الزمني" (بن نبي، 1986 أ، ص56).

وبهذا المعنى الذي ذكره بن نبي، تصبح شبكة العلاقات الاجتماعية جزءاً من الفكرة الدينية عند نشأتها، ثمَّ تصبح الفكرة الدينية مُحفِّزاً للعلاقات الاجتماعية عند تطوُّرها، فيما سمّاه بن نبي الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية (بن نبي، 1986 أ، ص111). وتتمثَّل هذه الفاعلية الاجتماعية في أنَّها تُنشِئ نظاماً اجتماعياً تتضاعف فيه شبكة العلاقات الاجتماعية حتّى تصل حَدّاً يقلُّ فيه الفراغ الاجتماعي.

وعلى العكس من ذلك، إذا ضعفت الفكرة الدينية، فإنَّ كثافة شبكة العلاقات الاجتماعية تتناقص، ويتَّسع الفراغ الاجتماعي. والخلاصة أنَّ إدماج مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" على مستوى الفكرة الدينية منح الدور الحضاري لهذه الفكرة بُعْداً اجتماعياً يتمثَّل في الفاعلية الاجتماعية، إضافةً إلى البُعْد النفسي الذي يختصُّ بالجانب الروحي للمرء.

رابعاً: المنطلقات الفكرية لمالك نبي في التأصيل لمصطلحات العلوم الاجتماعية

وظَّف بن نبي مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" لسببين رئيسين؛ الأوَّل: تناغم هذا المصطلح مع فكرة جوهرية استنتجها بن نبي من تجربة التآخي بين المهاجرين والأنصار، وتمثَّلت في أثر الجانب النفسي أو الروحي في تماسك المجتمع كما ذكرنا سابقاً. والثاني: تطوير هذا المصطلح لمنظومة بن نبي النظرية؛ بأنْ أضفى عليها البُعْد السوسيولوجي الذي كان ينقصها. وهنا يتعيَّن توظيف المصطلح عن طريق إعادة صياغته، بإضافة أفكار، وحذف أُخرى، ثمَّ دمجه في منظومته النظرية، وربطه بأهم أفكاره.

وإذا كان بن نبي قد تبنّى مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، ووظَّفه داخل منظومته النظرية، فإنَّه أعرض عن مصطلحات أُخرى بعد أنْ ناقشها، ورَدَّ عليها، مثل: مصطلح "العامل الاقتصادي" لكارل ماركس Karl Marx، ومصطلح "التحدّي الجغرافي" لأرنولد توينبي Arnold Toynbee؛ إذ قال: "إذا نحن حاولنا بعد الذي سردنا من النظريات أنْ نستعمل إحداها في تفسير لواقعة تاريخية مُحدَّدة -ولتكن الحضارة الإسلامية على سبيل المثال- فإنَّنا نجد أنَّها لا ترضينا تمام الرضا. إذاً نحن لا نرى في "تكوين" هذه الحضارة العامل الجغرافي أو المناخي في شكل "تحدٍّ" مُعيَّن حسب نظرية توينبي، ولا العامل الاقتصادي الزوجي الأساس الـمُتمثِّل في الحاجة والوسيلة الصناعية حسب نظرية ماركس" (بن نبي، 1986 ب، ص65).[4] وفي هذا النقد، اعتمد صاحب كتاب

[4] أرجع محمد الطاهر الميساوي هذا النقد لمصطلحات ماركس وتوينبي إلى القبول الواسع الذي حظيت به نظريات هذين الـمُفكِّرين من طرف الـمُثقَّفين العرب في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي؛ لذا خصَّهما بن نبي بالمناقشة والردِّ في إطار مشروعه الفكري (El-Mesawi, 2006, p253).

"شروط النهضة" على نشأة الحضارة الإسلامية، في اختباره مدى قدرة مصطلح "التحدّي الجغرافي" ومصطلح "العامل الاقتصادي" على تفسير التغيير الاجتماعي ونشأة الحضارات.

إنَّ المقابلة بين مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" من جهة ومصطلح "التحدّي الجغرافي" ومصطلح "العامل الاقتصادي" من جهة أُخرى تُبيِّن أنَّ قبول بن نبي للمصطلحات أو رفضها يعتمد على مدى تَوافقها مع منطلقاته الفكرية. ويُقصَد بهذه المنطلقات الكلياتُ أو الأوَّليات الأساسية في نظرة بن نبي إلى الظاهرة الحضارية ومختلف جوانبها، وهي نظرة تحكم عملية التأصيل عنده، وتتمثَّل في العناصر الثلاثة الآتية:

1. القرآن الكريم: حرص بن نبي على إظهار مركزية القِيَم والمبادئ القرآنية في تحليلاته ودراساته؛ إذ ضمَّن جميع كتبه آيات قرآنية للاستشهاد بها، ودعم تحليله وأفكاره، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]؛ فقد أورد هذه الآية الكريمة في عديد من كتبه،[5] وعَدَّها أصل كل تغيير اجتماعي، وأصل كل نقلة حضارية. وكان بن نبي قد أشار في مُذكِّراته إلى أنَّه تأثَّر كثيراً في شبابه بطريقة صديقه حمودة بن الساعي في الاستدلال بالآيات القرآنية لتحليل الظواهر الاجتماعية وفهمها؛ إذ قال: "ففي نـزهاتنا معه أنا وفضلي بين غابات الصنوبر، كنت أستمع إلى طريقته في توجيهه الآيات القرآنية لتتخذ تفسيراً اجتماعياً لحالة المجتمع الإسلامي الحاضرة، وكان ذلك يُؤثِّر في نفسي كثيراً" (بن نبي، 1984، ص67). فهذه الطريقة في الربط بين الآيات القرآنية والظواهر الاجتماعية التي تأثَّر بها تَظهر بصورة جَلِيَّة في كتبه، وهي تُعبِّر أساساً عن مركزية القرآن الكريم في فكره.

2. السُّنَّة النبوية: دأب بن نبي في كتبه على الاستشهاد بالأحاديث النبوية، وتدعيم أفكاره بها؛ فكثيراً ما ختم الفصول بحديث شريف، وموقف من مواقف الرسول ﷺ، يُوافِقان خلاصة الأفكار التي ينتهي إليها. ومن ذلك: حديث "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو

[5] على سبيل المثال، ذكر بن نبي هذه الآية الكريمة في أربعة مواضع من كتابه "شروط النهضة"، وفي موضعين من كتابه "وجهة العالم الإسلامي"، وفي موضع واحد من كتابه "ميلاد مجتمع".

يُمجِّسانه" (بن نبي، 1986 أ، ص65)، وحديث "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً" (بن نبي، 1986 أ، ص12، 39، 57)، وحديث "ما أكل أحد طعاماً خيراً من أنْ يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود كان يأكل من عمل يده" (بن نبي، 1986 ب، ص106). والأحاديث التي ذكرها بن نبي في كتبه كثيرة، وهي تُبيِّن كيف كان يربطها بأفكاره وبالمصطلحات التي استخدمها.

3. نشأة الحضارة الإسلامية: يتجلّى ذلك في سيرة الرسول ﷺ، وسيرة أصحابه ﷺ أجمعين. وكما رأينا، فإنَّ بن نبي قَبِل بمصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" لأنَّه يُوافِق تجربة التآخي بين المهاجرين والأنصار، ورفض مصطلح "التحدّي الجغرافي" لأنَّه لا يُوافِق عوامل نشأة هذه الحضارة. والصورة التي رسمها بن نبي في كتابه "شروط النهضة"، للصحابي بلال بن رباح تحت وطأة التعذيب، وهو يرفع سبّابته نحو السماء، مُردِّداً: أَحد أَحد، وقد سما بهذا الفعل بروحه عن جسده وعقله؛ هذه الصورة جعل منها بن نبي قاعدة رجَّح بها العامل الروحي في نشأة الحضارة على العوامل الأُخرى، مثل: الجغرافيا، والاقتصاد. وتوجد قصص كثيرة عن الرسول ﷺ وعن الصحابة لا يسعُنا ذكرها هنا، وقد أوردها بن نبي في كتبه، مُستشهِداً بها على أفكاره وعلى المصطلحات التي وظَّفها.

يُمكِن النظر إلى هذه المنطلقات الفكرية الثلاثة بوصفها أُسساً للتأصيل عند بن نبي، تُحدِّد كيفية تعامله مع مصطلحات العلوم الاجتماعية المختلفة المشارب. وأوَّل كتاب له، وهو "الظاهرة القرآنية" الذي صدر عام 1946م، مهَّد لكتبه التالية التي تناولت مشكلات الحضارة في العالَم الإسلامي، ووضعت الأصل الروحي أو الأصل الغيبي في أُفق كل الحضارات (نقيب، 2016، ص31). وفي نظرنا، فإنَّ هذا الكتاب مهَّد أيضاً لمنطلقاته الفكرية؛ إذ أكَّد بن نبي في خاتمة الكتاب أنَّه في "ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته" (بن نبي، 2000 ب، ص300). إذن، فالفهم الصحيح لفكر الإنسان وحضارته يجب أنْ يستند إلى ما جاء في القرآن الكريم، أو يستند – على الأقل– إلى أفكار ومفاهيم ومصطلحات لا تتناقض مع المبادئ والقِيَم التي جاء بها القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، أو تلك التي تضمَّنتها سيرة الرسول وسير الصحابة.

وفي ما يختصُّ بالعلاقة بين المعرفة الدينية والمعرفة الوضعية في فكر بن نبي، وجد لمشيشي أنَّ مُفكِّرنا الإسلامي كان يستعين بالعلوم الوضعية لهدف وسائلي يُعِينه على الإفهام. أمّا استعانته بالنصوص الشرعية وحقائق التاريخ الإسلامي فهي غائية تُعِينه على التوصُّل إلى النتائج العلمية في دراساته (لمشيشي، 2013، ص92).

ونحن نرى أنَّ النصوص الشرعية، وسيرة الرسول ﷺ، وسير الصحابة؛ كلها تُمثِّل منطلقات فكرية كلية عند بن نبي، وضعها على أساس أنَّها تُمثِّل إطاراً عاماً لفهم الظواهر محل الدراسة. أمّا العلوم الوضعية فتُعِينه على الخوض في دقائق هذه الكليات والتعمُّق فيها. ومن ذلك اعتماده في الفهم الشامل لعملية التغيير الاجتماعي على الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11]، واستعماله مصطلحات "الكبت" و"اللاشعور" و"شبكة العلاقات الاجتماعية" المستقاة من علم النفس وعلم الاجتماع؛ للتعمُّق في فهم كيفية تغيُّر الأنفس.

وهذا المنهج في الربط بين الدين والعلوم الوضعية يقترب كثيراً ممّا وصفه طه جابر العلواني بالقراءة التي "تستصحب الوحي في قراءة الكون وفهمه واكتشاف سُننه" في شكل عروج "من الجزئي النسبي باتجاه الكلي الـمُطلَق" (العلواني، 1996، ص16-17). والخلاصة أنَّ بن نبي كان دائماً يستصحب المنطلقات الفكرية الكلية التي ذكرناها في فهم المشكلات الجزئية للحضارة وتحليلها تبعاً لِـما توصَّلت إليه العلوم الاجتماعية الحديثة.

خاتمة:

لقد تنبَّه مالك بن نبي مُبكِّراً لمزالق استيراد مصطلحات العلوم الاجتماعية الناشئة في الغرب، ورأى ضرورة تمحيصها، وانتقاء ما يُوافِق البيئة الثقافية الإسلامية وخصوصياتها الاجتماعية والتاريخية، وهو ما جعل بعض المهتمين بفكره يقولون بأسبقيته في تناول مسألة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية. وتحليلنا في هذه الدراسة لكيفية استخدامه مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، الذي صاغه عالِـم النفس الاجتماعي جاكوب مورينو، مكَّننا من إبراز خطوتين أساسيتين في عملية التأصيل عند بن نبي، وهما:

– إعادة صياغة المصطلح: لم يستعمل بن نبي مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية" كما صاغه مورينو، ولم يلتزم بالمعنى الذي أراده منه، وإنَّما توسَّع في معناه، وأضاف إليه أفكاراً، وحذف منه أُخرى، بحيث أبقى على ما يُوافِق أفكاره، وحذف ما لا يهمُّه في تحليله للمجتمعات الإسلامية.

– إدماج المصطلح داخل منظومته النظرية: بعد أنْ أعاد بن نبي صياغة المصطلح، فإنَّه عمل على دمجه داخل منظومته النظرية، عن طريق ربطه بكلٍّ من فكرة "المراحل الثلاث"، وفكرة "العوالم الثلاثة"، وفكرة "الدور الحضاري للفكرة الدينية". أمّا هدف بن نبي من إدماج "شبكة العلاقات الاجتماعية" فهو إضفاء البُعْد السوسيولوجي أو القراءة السوسيولوجية على منظومته النظرية التي ركَّزت أساساً على الجانب النفسي.

غير أنَّ هاتين الخطوتين تُبرِزان جانباً واحداً من منهج بن نبي في التأصيل. أمّا الجانب الآخر فيظهر عند المقارنة بين المصطلحات التي قَبِلها، مثل "شبكة العلاقات الاجتماعية"، والمصطلحات التي رفضها، مثل: "التحدّي الجغرافي" لأرنولد توينبي، و"العامل الاقتصادي" لكارل ماركس. ويتمثل هذا الجانب في كون اختياره مصطلحات العلوم الاجتماعية يخضع لمنطلقات فكرية معيارية، تُحدِّد ما يجب قبوله أو رفضه من هذه المصطلحات. هذه المنطلقات هي: القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، وسيرة الرسول ﷺ، وسير أصحابه رضوان الله عليهم. ويُمكِن القول إنَّ هذه المنطلقات الفكرية الثلاثة تُمثِّل كليات في فكر بن نبي، تُعِينه على فهم مشكلات الحضارة، ومصطلحات العلوم الاجتماعية التي تُوافِق منطلقاته الفكرية تساعده على التعمُّق في فهم جزئيات هذه المشكلات على اختلاف تشعُّباتها الاجتماعية، والسياسية، والنفسية، والاقتصادية، ...، وغير ذلك.

ختاماً، فإنَّ مسألة التأصيل لمصطلحات العلوم الاجتماعية عند بن نبي لم تكن لذاتها، وإنَّما جاءت في إطار دراسته مشكلات الحضارة؛ فتعامله مع هذه المسألة كان في جانبها العملي لا جانبها النظري. وإنِ استحضر بن نبي أو لم يستحضر أنَّه في استخدامه هذه المصطلحات كان ينحو منحى التأصيل الإسلامي، فإنَّ منهجه في انتقاء مصطلحات حقول العلوم الاجتماعية المختلفة يُمثِّل أنموذجاً عملياً قد يُسهِم في تقدُّم مشروع التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية.

المراجع:

أمزيان، محمد محمد (1991). **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

بابا عمي، محمد (2018). "مشكلة المعرفة، والخصوصية الإسلامية عند مالك بن نبي"، **موقع نسمات للدراسات الاجتماعية والحضارية**، الرابط الإلكتروني: https://nesemat.com/13671/

رجب، إبراهيم عبد الرحمن (1995). "التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية: معالم على الطريق"، **مجلَّة إسلامية المعرفة**، مجلَّد1، عدد3.

السعد، نورة خالد (1997). **التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي: دراسة في بناء النظرية الاجتماعية**، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع.

سعود، الطاهر (2015). "نحو سوسيولوجيا لمرحلة ما بعد الاستقلال، أو السوسيولوجيا الملتزمة من منظور مالك بن نبي"، **مجلَّة أوراق نماء**، عدد45، الرابط الإلكتروني: https://bit.ly/31GY8Gk

سماتي، محفوظ (2006). "تأصيل العلوم الاجتماعية عند مالك بن نبي"، **مجلَّة اللغة العربية**، مجلَّد8، عدد1.

ابن شعيب، بلقاسم (2019). "أسلمة المعرفة وتقاطعها مع مشروع مالك بن نبي الفكري"، **مجلَّة العلوم الاجتماعية**، جامعة الأغواط، مجلَّد8، عدد2.

الطالبي، عمار (1991). "فكر مالك بن نبي والمجتمع الإسلامي المعاصر"، **مجلَّة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية**، جامعة قطر، عدد9.

العلواني، طه جابر (1996). **إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الفاروقي، إسماعيل (1995). **صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية**، ط2، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي.

بن لحسن، بدران (2020). "العلاقات الاجتماعية ... ساعة الميلاد!"، **منصة عمران**. الرابط الإلكتروني: https://bit.ly/3y9QKix

بن لحسن، بدران (1999). **الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري. أنموذج مالك بن نبي**، الدوحة: كتاب الأُمَّة.

اللجنة الدائمة للتأصيل الإسلامي (1987). **ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية**، الرياض: جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

لمشيشي، مولاي الخليفة (2012). **مالك بن نبي: دراسة استقرائية مقارنة، معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع "مشكلات الحضارة"**، دمشق: دار محاكات- دار النايا.

بن نبي، مالك (2002 أ). **بين الرشاد والتيه**، ط2، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (1986 ب). **شروط النهضة**، ط3، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (1981). **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، ط2، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2000 ب). **الظاهرة القرآنية**، ط5، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2001). **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ط3، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2000 أ). **القضايا الكبرى**، ط2، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2000 د). **المسلم في عالم الاقتصاد**، ط4، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2002 ج). **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2000 ج). **مشكلة الثقافة**، ط5، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (1984). **مذكرات شاهد للقرن**، ط2، دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك (1986 أ). **ميلاد مجتمع**، ط3، الجزائر: دار الفكر.

بن نبي، مالك (2002 ب). **وجهة العالم الإسلامي**، ط2، دمشق: دار الفكر.

نقيب، عمر (2016). "طبيعة المجتمع في فكر مالك بن نبي التربوي"، **مجلّة معالم**، المجلس الأعلى للغة العربية، عدد7.

References:

Al-ʿAlwānī, Ṭ. (1996). *Islāmiyyat al-Maʿrifah bayna al-Ams wa al-Yawm*. Cairo: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Al-Fārūqī, I. (1995). *Ṣiyāghat al-ʿUlūm al-Ijtimāʿyyah Ṣiyāghah Islāmiyyah* (2nd ed.). Riyadh: Al-Dār al-ʿĀlamiyyah li al-Kitāb al-Islāmī.

Al-Lajnah al-Dā'imah li al-Ta'ṣīl al-Islāmī (1987). *Nadwat al-Ta'ṣīl al-Islāmī li al-ʿUlūm al-Ijtimāʿiyyah*. Riyadh: Jāmiʿat Muḥammad bin Suʿūd al-Islāmiyyah.

Al-Saʿd, N. (1997). *Al-Taghyīr al-Ijtimāʿī fī Fikir Mālik Bennabi: Dirāsah fī Binā' al-Naẓariyyah al-Ijtimāʿiyyah*. Riyadh: Al-Dār al-Suʿūdiyyah li al-Nashr wa al-Tawzīʿ.

Al-Ṭālibī, ʿA. (1991). Fikir Mālik Bennabi wa al-Mujtamaʿ al-Islāmī al-Muʿāṣir. *Majallat Kuliyyat al-Sharīʿah al-Islāmiyyah*. Jāmiʿat Qaṭar, 9.

Amazyān, M. (1991). *Manhaj al-Baḥth al-Ijtimāʿī bayn al-Waḍʿiyyah wa al-Miʿyāriyyah*. Virginia: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Bābā ʿAmī, M. (2018). Mushkilat al-Maʿrifah wa al-Khuṣūṣiyyah al-Islāmiyyah ʿinda Mālik bin Nabī. *Mawqiʿ Nasamāt li al-Dirāsāt al-Ijtimāʿiyyah wa al-Ḥaḍāriyyah*. https://nesemat.com/13671/

Benlahsan, B. (1999). Al-Ẓāhirah al-Gharbiyyah fī al-Waʿī al-Ḥaḍārī. Unmūdhaj Bennabi. Doha: Kitāb al-Ummah.

Benlahsan, B. (2020). Al-ʿAlāqāt al-Ijtimāʿiyyah … Sāʿat al-Mīlād! *Minaṣṣat ʿUmrān*. https://bit.ly/3y9QKix

Bennabi, M. (1981). *Al-Ṣirāʿ al-Fikrī fī al-Bilād al-Mustaʿmarah* (2nd ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (1986 a). *Mīlād Mujtamaʿ* (3rd ed.). Algeria: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (1986 b). *Shurūṭ al-Nahḍah* (3rd ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (1989). *Mudhakkarāt Shāhid li al-Qarn* (2nd ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2000 a). *Al-Qaḍāyā al-Kubrá* (2nd ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2000 b). *Al-Ẓāhirah al-Qur'āniyyah* (5th ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2000 c). *Mushkilat al-Thaqāfah*. Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2000 d). *Al-Muslim fī ʿĀlam al-Iqtiṣād* (4th ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2001). *Fikrat al-Ifrīqiyyah al-Āsyawiyyah* (3rd ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2002 a). *Bayna al-Rashād wa al-Tīh*. Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2002 b). *Wijhat al-ʿĀlam al-Islāmī* (2nd ed.). Damascus: Dār al-Fikr.

Bennabi, M. (2002 c). *Mushkilat al-Afkār fī al-ʿĀlam al-Islāmī.* Damascus: Dār al-Fikr.

Ibn Shuʿayb, B. (2019). Aslamat al-Maʿrifah wa Taqāṭuʿuhā maʿ Mashrūʿ Mālik Bennabi al-Fikrī. *Majallat al-ʿUlūm al-Ijtimāʿiyyah*. Jāmiʿat al-Aghwāṭ, 8 (2).

Limshīshī, M. (2012). *Mālik Bennabi: Dirāsah Istiqrā'iyyah Muqārinah. Maʿālim al-Manhaj fī Ta'ṣīl al-ʿUlūm al-Insāniyyah li Mashrūʿ "Mushkilāt al-Ḥaḍārah"*. Damascus: Dār Muḥākāt, Dār al-Nāyā.

Naqīb, ʿU. (2016). Ṭabīʿat al-Mujtamaʿ fī Fikr Mālik Bennabi al-Tarbawī. *Majallat Maʿālim*. Al-Majlis al-Aʿlá li al-Lughah al-ʿArabiyyah, 7.

Rajab, I. (1995). Al-Ta'ṣīl al-Islāmī li al-ʿUlūm al-Ijtimāʿiyyah: Maʿālim ʿalá al-Ṭarīq. *Majallat Islāmiyyat al-Maʿrifah*, 1(3).

Samātī, M. (2006). Ta'ṣīl al-ʿUlūm al-Ijtimāʿiyyah ʿind Mālik Bennabi. *Majalat al-Lughah al-ʿArabiyyah*, 8 (1).

Suʿūd, A. (2015). Naḥwa Sūsyūlūjyā li Marḥalat mā baʿd al-Istiqlāl, aw al-Sūsyūlūjyā al-Multazimah min Manẓūr Mālik Bennabi. *Majallat Awrāq Namā'* (45). https://bit.ly/31GY8Gk

Malek Bennabi's Islamic Rooting of the Terminology of Social Sciences: "Social Relations Network" as a Model

Noureddine Mihoubi*

Abstract

This study examines Malek Bennabi's Islamic rooting of the terminology of social sciences through the analysis of one of the basic terms that he selected and instrumentalized from sociology; namely, "social relations network." Bennabi's instrumentalization of the term shows that his approach to rooting has two levels. The first is to reformulate the term and integrate it into the concepts that make up its theoretical system; which are: the three stages of the civilizational cycle, the three worlds, and the civilizational role of the religious idea. The second level is basing his selection of those terms on the following principal intellectual premises: the Noble Qur'an, the Prophet's Sunnah, and the biography of the Prophet (peace be upon him) and his Companions (may Allah be pleased with them). These intellectual premises are totalities through which Bennabi understood the phenomena related to the problems of civilization. The terminology of social sciences that agrees with his intellectual premises helps him delve into the particulars of the phenomena under study.

Keywords: Malek Bennabi, Islamic rooting, social relations network, social sciences terminology, intellectual premises.

* PhD in Sociology, Researcher at the National Centre of Research in Social and Cultural Anthropology (CRASC), Algeria. Email: nou.mihoubi@gmail.com